

السنة^١ و الاجتهاد و الاجماع في الصدر الاسلامي

للدكتور فضل الرحمن
مدير معهد الدراسات الاسلامية في باكستان

ان السنة فكرة سلوكية ، سواء أكانت مطابقة للافعال الجسمانية او الافعال العقلية ، وهي لا تدل على فعل من الافعال واحد فحسب بل انه يتكرر بالفعل أو له صلاحية للتكرار بالقوة و بعبارة أخرى فان السنة قانون سلوك بغض النظر من أنه وقع مرة أو مرارا ، و بما أن السلوك المعروض على مسرح البحث يأتي نتيجة للعوامل الواعية المسئولة عما يصدر من أعمالها فان السنة ليست قانون سلوك (كقانون الاجسام الطبيعية) فحسب بل انما تصبح قاعدة للقانون اخلاقية . و من ثم فان عامل الوجوب الاخلاقي لا يمكن أن نبتره بترًا من معاني الفكرة للسنة— و وفقا للرأي السائد بين الباحثين المحدثين الغربيين— فان السنة تدل على المزاولة الفعلية اذا دامت لاجيال متعاقبة فانها تكسب صفة القاعدة . و بدأ قانها تصبح سنة ، و هذه النظرية لاتجعل المزاولة الفعالية و ان تكن لمدة من الزمن موقته فحسب بل سابقة منطقيا لأساس القاعدة القائمة على المزاولة . و يتضح من هذا أن هذه النظرية تتلقى شبه قبول و ذلك لان السنة فكرة سلوكية فالذي يمارسه مجتمع من المجتمعات لمدة طويلة من الزمن لا يصبح مزاولة قائمة فحسب بل انه يصير

مزاولة قاعدية ، و مما لاشك فيه أن مثل هذه الحالة تكون صحيحة على وجه الخصوص بالنسبة للمجتمعات المتناسكة كما المجتمعات القبلية ، على أن هذه الاعمال في أول وهلة لم تكن قائمة اذا لم تعد قاعدية في بدايتها. فهذا مما يدل على أن عنصر القاعدية يجب أن يكون مسبقا لوقوع الاعمال المتكررة و لا بد من الاعتراف أن كون التقاليد قائمة لمدة طويلة تزيد عنصر القاعدية أكثر قوة وعلى وجه الخصوص في المجتمعات القبلية و لكن الامر هذا شئ آخر و يجب أن نخلصه من القاعدية الاساسية .

أما السنة فان معناها الاصلى هو السلوك المثالى و لا يدخل في هذا المعنى اتباعه في الامر الواقع و ان يكن القيام بالسنة يوجب اتباعها و يمكننا أن ندل على ذلك بامثلة عدة كما يأتى. يقول ابن دريد في كتابه الجمهرة ... (و يحذو حذوه في ذلك كثيرون من الغربيين) يقول أن كلمة "سن" تعنى صور (الشئ) أى صورته على أنه مثال يحذى حذوه و من ثم تطلق على سلوك يعد مثالا و هذا هو المعنى الذى يتفق و ما نقصد اليه بهذا الصدد لان كلمة سن تعنى "ضرب مثالا" و بهذا المعنى نصح ابو يوسف الخليفة هارون الرشيد بأن يأتى ببعض سنن حسنة و لم يطلب باتباع بعض السنن . و بهذا الصدد يروى ابو يوسف حديثا قد يكون من الاحاديث القديمة: من سن فى الاسلام سنة حسنة فله أجره و من سن سنة سيئة ... الخ و اذا تساءل أحد كيف تكون سنة من السنن سيئة و هى فى معناها الجوهرى تقضى لا باتباعها فحسب بل بأن تكون قاعدة أساسية للاخلاق، و الرد على هذا القول كما يقول صاحب لسان العرب أن الذى يسن سننا سيئة يجب أن يتبعها الناس و هم فى معظم الحالات (فى جميع الحالات) لا يحسبون أنهم يضعون سننا سيئة .

و من فكرة السلوك المثالى تنبعث فكرة المعاملة النموذجية كتكملة لها بالضرورة ، فاذا ما أعدت سلوك أحد كسلوك مثالى فيصبح ذلك السلوك نموذجيا

أو صائبا بالنسبة الى مدى القيام باتباعه من قبلى و من ثم يأتى عنصر الاستقامة و الصواب فى المفهوم الممتد لكلمة السنة و فى هذا المعنى يستعمل كلمة سنن الطريق التى تعنى الطريق السوى أو الطريق الذى لا اعوجاج فيه أما رأى السائد أن السنة فى مفهومها الاساسى تعنى الطريق المطروق فانا لانجد سندا طريفا يسنده و ان يكن الطريق المستقيم يدل على أن الطريق سوى لا اعوجاج فيه كما أنه يدل على أن الطريق قد خطت خطة سليمة و لا بد من أن تكون مطروقة للدلالة على استقامتها . هذا و مفهوم السنة على أنها طريق مستقيم غير معوج يمينا أو شمالا يدل دلالة أخرى ألا و هى أنها و سيط بين الطرفين أو الطريق الوسط . فيقول الامام أبو حنيفة معبرا عن رأى أهل العدل و السنة أو الذين يسلكون طريقا وسطا . و جاء ذلك فى رسالة له الى عثمان البطى يشرح فيها موقفه من مسلم آثم على تطرف الخوارج . و يقول الامام أما وصفكم ”المرجئة“ الذى تحدثتم (عن رأي) فما ذنب الذين يقولون بالعدل و ينعتهم المتحرفون بهذا الاسم . فبالعكس فان هؤلاء هم (و ليس المرجئة) أهل العدل و الطريق الوسط“ و فى الفصل الآتى سنحاول أن نبين كيف تطور الاصطلاح للسنة الى هذا المفهوم و نرى أن مبدأ الوسط أدى الى ظهور ”أهل السنة“

و بين علماء الغرب المحدثين يمتاز اجناز جولزهيير بأنه كانه أول من درس تطور الحديث الاسلامى درسا مستقصيا و ان لم يحقق لم و يمعن فى رأيه نفسه حق الامعان ، فذهب الى أن سيرة النبي ﷺ و ما قام به من الاعمال بعد ظهور الرسالة فورا أصبح كل ذلك سنة بالنسبة للجماعة المسلمة الناشئة و تم القضاء على سنة الجاهلية قضاء مبرما ، غير أن هذا رأى قد تغير تغيرا كاملا بعد المستشرق جولزهيير— إذ يذهب المستشرق الهولندى اسنوخ هركرونج الى أن المسلمين قد اضاقوا ما اضاقوا الى سنة الرسول ﷺ حتى أن كل الفكر الاسلامى و النشاط الاسلامى صار كأنه سنة الرسول ، بينما يرى

بعض الباحثين الممتازين مثل لامان ومارغليوث أن السنة كلها عمل من أعمال العرب في الجاهلية و الاسلام أيضا و بدأ فانها استمرار للعهدين . و فكرة سنة رسول الله ﷺ قد غض النظر عنها بطريق مباشرة أو غير مباشرة و قد حذا المستشرق جوزف شاخث حدو مارغليوث و لامان جميعا فنجده يقول في كتابه "أصول الفقه الاسلامي" بأن فكرة سنة الرسول متأخرة نسبيا فكان المسلمون الاولون يقصدون بالسنة على أنها من أعمال المسلمين أنفسهم .

و قد انتقدنا هذا الرأي في غير هذا الموضع و انتقدنا الاسباب التي قامت عليها الدراسات الاسلامية الغربية و أوضحنا التعقيد و الغموض الفكرين في مسألة السنة و ذلك لأن هؤلاء الباحثين رفضوا فكرة سنة رسول الله ﷺ بناء على :

أولا أن جزاء مما احتوت عليه السنة استمرار مباشر للتقاليد و الاخلاق العربية ، ثانيا أن معظم ما تحوى عليه السنة جاء نتيجة لاعمال الرأي الحر من قبل المشرعين المتقدمين في الاسلام فانهم باجتهادهم الشخصي قاموا باستنتاج ما تهيأ لهم من السنة القائمة و اهم من ذلك فانهم أدخلوا عناصر جديدة من الخارج و على وجه الخصوص من المصادر اليهودية و البيزنطية و التقاليد الادارية الفارسية ، و ثالثا أن الحديث عندما تطور الى حركة شاملة و أصبح ظاهرة على نطاق عام في النصف الاخير من القرن الثاني و القرن الثالث صار فحوى السنة بكاملها ينسب الى الرسول ﷺ نفسه فاطلق عليه تعبير سنة رسول الله ﷺ .

و الآن لنا أن ثبت على أن ما قيل عن تطور السنة صحيح في عناصرها المبدئية أى أنه صحيح فيما تحوى عليه السنة و لكنه غير صحيح بالنسبة للفكرة نفسها و بعبارة أخرى فانه لا يصح أن يقال ذلك عن فكرة سنة الرسول ﷺ و انا كانت سنة الرسول فكرة عملية صائبة منذ بدء الاسلام

وكلت كذلك على مر العصور و الاجيال ، ثانيا أن مضمون السنة الذي تركه الرسول ﷺ لم يكن كبيرا في مقداره كما أنه لم يكن مختصا بشئ بعينه ، وثالثا أن فكرة السنة أصبت بعد عهد الرسول لا تشمل على سنة الرسول فحسب بل انها أصبحت تشمل عهد الشروح و التفسيرات للسنة النبوية ، ورابعا فإن السنة في هذا المعنى الاخير تتعاش مع اجماع الجماعة والاجماع من حيث الاساس عملية توسعية متواصلة ، وخامسا أنه بعد ان تطور الحديث الى حركة على النطاق العمومي فان الصلة الحيوية بين السنة و الاجتهاد و الاجماع قد انقطعت و قضى عليها . و في الفصل الاتي سنحاول ان نثبت عبقرية الحديث الحقيقية وكيف أن السنة نستطيع أن نستنتج منها مادة الحديث الصحيحة وكيف نتمكن من أن نجعل الاجتهاد و الاجماع طريقة عملية مرة أخرى .

و من الجائز أن نستنتج مما ذكرنا اعلاه أن النظرية القائلة بان فكرة سنة الرسول و حتى مضمون السنة النبوية لم تكن (دون الاحكام القرآنية حول المسائل الشرعية و الاخلاقية) تقوم هذه النظرية على اعتبارين فاولا: أن معظم ما تحوى عليه السنة في الصدر الاسلامي اما استمرار للتقاليد العربية ما قبل الاسلام او جاء نتيجة للنشاط الفكري المستوعب على يدي المسلمين أنفسهم، وثانيا أن السنة تدل على كل حال على تقليد من التقاليد على عكس الاعمال التي يقوم بها شخص من الاشخاص ، والقول الثاني لا يدعم القول الاول فحسب بل انه يكسب قوته من الاول أيضا .

و في الفصل الاول و الثاني فقد أتينا بالدلائل مما يدحض هذا الرأي و أثبتنا على أن السنة تعنى في الحقيقة ضرب مثل أو وضع أسوة نظرا الى أن ذلك المثل سيحذى حذوه أو يوجب حذوه . و مما لاشك فيه أن القرآن الكريم يقول ”ولن تجد لسنة الله تبديلا“ و ذلك بما يتصل به قوى

الخائق السائدة على صعود وسقوط الجماعات والأمم ، وهنا تتصل مثالية العمل التقليدى لذات الوجود ، ألا وهى الله ، ونفس القرآن يقول عن السلوك المثالى للنبي ﷺ رغم توجيه التنقيد فى بعض الاحوال الى سلوك النبى (وهذا الامر الاخير بهيى حجة خلقية طريفة لظاهرة الوحي للقرآن) ولما كان الكلام الالهى يصف خلق النبى بأنه عظيم فهل من المعقول ألا يقبل المسلمون ذلك من البداية .

وقد رأينا فى كتابنا "الاسلام" الرسالة التى بعث بها الحسن البصرى الى الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥ - ٥٨٥) ففيمها يتحدث الحسن عن سنة الرسول فيما يتصل بحرية الارادة البشرية و ان اعترف بعدم وجود حديث رسمى أو شفوى عن رسول الله ﷺ فى هذا الامر وهذا مما يدلنا على تفهم فكرة السنة النبوية التى سنعود اليها فيما بعد وبالإضافة الى ذلك يقول الشاعر الكميى الهاشمى فى أوائل القرن الثانى للهجرة يقول فى احدى قصائده المشهورة .

باى كتاب او باى سنة ... ترى جبهم عارا على وتحسب

و الضمير "هم" يعود الى اهل بيت النبى خاصة وبنى هاشم على الوجه العام ، أما الكتاب فما هو الا القرآن الكريم . أما لفظة السنة فهى لا تعنى الاسنة الرسول و لم يستعملها الشاعر فى المعنى الذى يقصد اليه المشرعون الاولون بقولهم سنة المدينة كما أنها لم تستعمل فى معنى الطريق الوسط لأن هذا المدلول قد تطور فيما بعد كما جاء فى حديثنا عن رسالة الامام أبى حنيفة أى بعد أن ظهر الجدل حول الآراء الدينية ، و القصيدة التى وردت فيها هذه اللفظة من القصائد الاولى للشاعر الكميى كما يقول صاحب الاغانى . وهذا فان تاريخ القصيدة يعود الى المائة الاولى من الهجرة أو قبل ذلك . و فضلا على ذلك فان الجو المحيط بهذه اللفظة ان دل على شىء فانها

على أن مدلول الكلمة كان قد تثبت بصورة كاملة . كما أنا لانجد فيها تعقيدا دينيا شيعيا ، لأن الشاعر لم يكن شيعيا متعسفا مغاليا اذ أنه يقول بصراحة انه لا ينكر أبابكر وعمر ولا يكفرهما .

و يقول ابو يوسف في كتابه كتاب الخراج ان الخليفة عمر كتب مرة أنه عين أناسا في أماكن متعددة ”لأجل تعليم القرآن و سنة نبينا“ ويجوز أن يقول قائل ان هذا القول متأخر الى حد ما (وقد قيل في النصف الثاني من القرن الثاني) ففي هذا الوقت أخذت فكرة السنة النبوية تنمو و تظهر بصورة واضحة . و الذي يهمننا صواب القول الصادر في الظروف المحيطة به نفسه . فمما لاشك فيه أن الخليفة عمر أرسل رجالا الى دول شتى و الى العراق على وجه الخصوص ، و شدد على تعليم اللغة و الأدب العربية و لاجابة بنا الى أن نؤكد أن القرآن كان نواة لهذا التعليم الجديد ولكن القرآن ليستعصى تفهمه على أنه كتاب مجرد لأن الوحي له أسباب النزول فليس من المعقول أن يقال أن القرآن قد علم دون النظر في سيرة الرسول على أنها نقطة ارتكاز تسير حولها أعمال الحياة من وضع السياسة الى الاوامر و اتخاذ القرارات . ان تعليم القرآن لن يتم حتى نعلم سيرة الرسول و البيئة التي عاش فيها ، و من الخطأ أن يحسب أحد في القرن العشرين أن الناس حول الرسول كانوا يدركون معاني القرآن دون أن يهتموا بتمثيلها العملي في حياة الرسول فهذا مستحيل . أو لم يسألوا و لو تلميحا هذا السؤال لم اختار الله هذا الرجل بعينه ليكون وسيلة لرسالته تعالى . أما رأى الباحثين المحدثين الذي يجعل الرسول كأنه اسطوانة مسجلة للوحي السماوى فان هذا الرأى سفيه و سخييف كل السخيف ، أن القرآن لا يقول بذلك اذ أنه يرفع النبى الى مكانة فريدة فيحمله مسئولانة ضخمة كما انه دائما يعشر بمسئوليته شعورا كثيرا للغاية . فكانت هنالك ، لاشك فيه ، سنة للنبي ﷺ فكيف كان مضمونها و طابعها

أكان ذلك شيئاً محدود المدى مفصلاً للقوانين لجميع نواحي الحياة كما يدل عليه كل كتب الحديث و الفقه العائد عهدها إلى القرون الوسطى ، اما اذا أجلنا نظرنا إلى السيرة النبوية و امعنا فيها دون ما أضيف اليها من جراء العلوم الفقهية الضخمة في القرون الوسطى ، فانا نلاحظ أن السيرة النبوية لا تثبت ما يراه الناس من أنه صلى الله عليه وسلم كان شارعا يمتاز بصفة العمومية فوضع بكل دقة نظاما للحياة يضمن كل صغير و كبير من الجهاز الادارى الى الطقوس الدينية البحتة . ان الامعان في السيرة النبوية ان دل على شىء فانها يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان من حيث الأساس مصلحا أخلاقيا لجميع البشرية و اذا وجدناه يتخذ بعض القرارات من حين لآخر فكان ذلك عرضا اذ أنه لم يقصد الى وضع تشريع عام كأداة للنهوض بقضية الاسلام و التشريع العام الذى نجاهه في القرآن الكريم لا يعد كونه شيئاً يسيرا جدا من التعاليم الاسلامية و على الرغم من ذلك فان القسم التشريعى أو شبه التشريعى يدل دلالة واضحة على أن طابعه عرضى بحكم الظروف الداعية الى ذلك او كما اقتضت به الحالة القائمة فمثلا الاحكام القرآنية عن الحرب و السلام بين المسلمين و مخالفهم جاءت طبقا لما دعت اليه الحاجة في الظروف المحيطة بها و ان كانت هذه الاحكام تحمل طابعا عاما للسلوك المثالى للجماعة نحو العدو في حالة الحرب الطاحنة و مع ذلك فان هذه الاحكام جاءت بناء على ما اقتضت به الظروف به الراهنة و طابعها شبه شرعى و ليس بتشريع على وجه التحديد يوجب اتباعه

ان نبيا من الانبياء شخص يهتم أول ما يهتم به بتغيير مجرى التاريخ و تصممه في البوتقة السماوية الروحية ، و هذا فان الحديث و السلوك النبويين لا يمكن أن يغض كل منهما النظر عن الظروف التاريخية المحيطة به و يخوض فى وضع النظريات العامة الغامضة . ان الله عز و جل يقول و النبي يفصل و ذلك في الظروف التاريخية القائمة و حسب و

ليس عليه ان يسبق ما قد يأتي به سير التاريخ و هذا مما يميز النبي من رجل يسبح في خياله أو صوفي يعرض نفسه اعراضا عما يحدث من حوله ، ان القرآن الكريم يتحدث حديثا مستفصيا عن بعض حوادث التاريخ الماضية و المعاصرة أيضا و مع ذلك فان الرسالة السماوية لا تقف عند حادث من حوادث التاريخ وانا نتجاوز كل الحدود و ان تكن جاءت بمقتضى الحالة الراهنة . و اذا دعت الحاجة الى سند يسند رأينا بجانب النظر الدقيق فيما يزيح عنه الستار القرآن الكريم و السنة فانا نجد الشاه و لى الله الدهلوى و المورخ ابن خلدون يقفان بجانبها في هذا الرأي ، لنعد الى حديثنا عن السنة النبوية و قد قلنا اعلاه أن العلوم الاسلامية تؤكد كل التاكيد على أن النبي لم يكن شارعا عاما .

ومن البديهي أن الرسول ﷺ كان يكافح ضد أهل مكة و العرب عامة و شغل نفسه طيلة حياته في وضع أسس للدولة و تنظيم أمور الجماعة الى أن انتقل الى ربه فكيف أتيج له من الوقت ما يكفى لوضع القوايين الدقيقة للحياة . و الواقع أن المسلمين كانوا يحيون حياة عادية وينصرفون الى أعمالهم كالمعتاد و يقومون بحسم نزاعاتهم وفقا لما تعودوا عليه من التقاليد التي لم يغيرها النبي بشيء الا عدلها ما عدل في بعض الاحوال التي اضطر الى حسمها ، عند تفاقمها ، كما أن القرآن الكريم نفسه اضطر الى التدخل من أجل حسم تلك المشكلات العويصة .

وكان معظم تلك المشكلات ذات طابع خاص فجزى النهوض به بطريقة خاصة دون الطرق المتبعة ، و بهذا فانا نستطيع أن نعد تلك القضايا كأمثلة نبوية قاعدية و شبه سوابق و لكنه يجب ألا نعتبرها كذلك على ظاهرها و مما يؤيد هذا الرأى النبي ﷺ لم يترك مثالا يوجب حذوه بكل الدقة لاداء فريضة الصلاة بالنسبة لمواعيدها و طرق أدائها . ان النبي ﷺ قام

باتخاذ اجراءات خاصة فيما يتصل بالقرارات حول الدين و الدولة و المبادئ
الاخلاقية ، و في ذلك أيضا كان النبي ﷺ يستشير أصحابه الاجلاء ان
شخصيا أو علنا “ و مما يلاحظ ان حياة النبي ﷺ العملية كانت امتزاجا
جميلا للسلطة الدينية و الديموقراطية و قد بلغت براعة هذا الامتزاج الى
درجة يفجز البيان عنها

أما أن السنة النبوية فكرة عامة دون أن تكون محتوية على مضمون
خاص فمصدرها أن السنة مصطلح سلوكي من الناحية النظرية و بما أن
الحالتين في الواقع ليستا متشابهتين بصفة كاملة في الظروف المحيطة بهما و
في جوهها الاخلاقي و النفسى و الهادى، فان السنة ليس لها الا أن تكون
قابلة للاجتهد و التعديل و بصرف النظر عن المسألة النظرية فان الأدلة
التاريخية الكثيرة تشهد على صواب هذا الرأى، فمثلا رسالة الحسن البصرى
الموجهة الى عبد الملك بن مروان اذ تصرح أنه لم يجد حديثا من
الاحاديث النبوية مما يؤيد حرية الارادة الواجبات البشرية و على الرغم
من ذلك فانه حديث نبوى فمعنى ذلك بكل الوضوح ان النبي و صحبه
قد أثبتوا بطريقة عملية أن الجبرية تناقض تعاليم النبي الحقيقية و هذه
العبارة من رسالة الحسن البصرى تهيبء لنا دلالة واضحة على أن السنة
ليست مجموعة قوانين متجرة و انها دليل على سواء السبيل كما أن هذه
الرسالة تثبت بكل وضوح ان فكرة السنة المثالية كانت أساسا قامت عليه
الحياة العقلية للمسلمين و أما الاجتهاد و الاجماع فإهما الا العوامل
المتكاملة التى لا بد منها لتحقيق أهداف السنة تحقيقا تقديما على مرالعصور
و كر الدهور

و أقدم المؤلفات عن الحديث و السنة و السنة بين أيدينا هو موطأ
مالك بن أنس (المتوفى سنة ١٧٩ هـ) و من عادة مالك أنه يبدأ بحثه

عن مسألة شرعية بنقل حديث ما عن النبي ﷺ نفسه اذا وجد واما عن اصحابه من الخلفاء الاربعة على وجه الخصوص وكان ينهى بحثه بقوله ”و هكذا السنة عندنا“ أو ”ولكن السنة عندنا كذا“ وكثيرا ما كان يقول ”الامر والعمل كذا“ . و أكثر من ذلك كان يقول ”الامر المجتمع عليه...“ و أما ما يتصل بمصطلح السنة فكان يكتفى أحيانا بقوله ”أن السنة عندنا كذا . أو قد مضت السنة“ و نريد أن ننظر بالتحليل و الدقة في هذه الكلمات المتشابهة بالمصطلحات الشرعية“.

ينقل مالك حديثا عن النبي ﷺ من أن النبي خول لشخص ما حق الشفعة أى حقه فى شراء نصيب شريكه من الملك الذى يريد صاحبه أن يبيعه و هنا يلاحظ مالك ”و السنة هكذا عندنا“ ثم يقول مالك ان شارع المدينة المشهور و هو سعيد بن المسيب (المتوفى سنة ٥٩٠هـ) سئل مرة عن الشفعة ”أتوجد سنة فى ذلك؟“ فقال المسيب ردا على السؤال ”نعم أن الشفعة تجوز بالنسبة للبيوت و الارض“.

و مما يهمنى أن نلاحظ الاختلاف الواضح بين الاستعمالين لمصطلح السنة ألا وهما ”هذه السنة عندنا . و هل توجد سنة عن الشفعة“ ففى الحالة الاولى فان معنى السنة العادة المتبعة فى المدينة و لكن هذا المعنى لا يستقيم فى الحالة الاخرى لان الناس لا يسألون عن المعروف ”أتوجد سنة عن ذلك؟“ ففى هذه الحالة يجب أن تعنى كلمة السنة مثلا أو حكما شرعيا قاعديا يوجب اتباعه، و لكن عن ذلك؟ فلاشك فى أن هذه الحالة السنة تعنى سنة النبي ﷺ أو السنة التى يستندها ثقات فى ظل السنة النبوية بصورة عامة و ذلك لأننا فى غير هذا الموضع أن التقاليد العربية فى الجاهلية لا يمكن أن تعد شرعية و بما أن اوضحنا أن السنة قد جاءت فى ظل الأسوة النبوية فقد اتضح كذلك أن المسيب يذكر ”النبي“ فى

هذا الموضوع ولا ينقل مالك أى حديث عن المسيب عن النبي و من الواضح أن السنة التي نحن بصددھا يجوز أن سنھا صحابى من صحابة الرسول أو محدث من المحدثين الثقات و لكنھا لم تخرج عن الفكرة العامة للسنة النبوية .

هذا و التصريحان عى مسألة الشفعة يدلان على أن (١) السنة سابقة مثالية فأصبحت عند مالك (٢) عادة متبعة .

أما الأداة الضرورية التي مكنت الاسوة النبوية من التطور الى القانون الخاص بالسلوك على يد الأجيال الاولى من المسلمين فكانت هى المستولة عن النشاط الفكرى الحر . و هذا التفكير المنطقى أى اعمال الرأى الشخصى أدى الى نتاج ثروة ضخمة من الافكار الشرعية والدينية و الاخلاقية فى خلال القرن الاول و النصف على وجه التقريب ، على أن هذا النتاج الفكرى الضخم قد أصبح متحجرا الى حدما و ذلك بسبب الاختلافات فى كتب السنة المؤلفة فى مختلف الاقاليم مثل الحجاز و العراق و مصر و قد ظهر هذا الاختلاف فى كل صغير و كبير من المسائل . و بناء على هذا الاختلاف المتواصل حول حرية الرأى أو الرأى الحر فقد صرح ابن المقفع (المتوفى سنة ١٤٠ هـ) بانه لا توجد هنالك السنة النبوية المتفق عليها و نصح الخليفة بان يعمل رأيه و يقوم بالاجتهاد و لكن المثقفين و الزعماء الدينين للجماعة كانوا يرون غير هذا الرأى و ذلك لان التفكير المنطقى المنظم عن السنة و القرآن كان قد حل محل التفكير الفردى الحر أو الرأى الحر و أطلق على هذا التفكير المنطقى المنظم اسم القياس ، و من ناحية أخرى فان السنة القائمة الناتجة عن الرأى الحر كانت قد وصلت الى نقطة و لو ببطء لاقت اقبال الجماعة الكبيرة عليها و ان تكن مكونة من جماعات اقليمية مثل الحجاز و العراق (البقية فى الصفحة ١٠٦)